الفصل الحادى عشر

حول المؤتمر الدولى الثانى والعشرين لعلم النفس بليبزج(*)

* تمهيد.
* موقف الكتلة الشرقية من فونت.
* الموقف من القياس النفسي.
* العلم والأيديولوچيا.
* دولية علم النفس وقومية علمائه.
* خاتمـة.

(*) اشترك المؤلف في المؤتمر الدولي الثاني والعشرين لعلم النفس، والذي عقد بمدينة ليبزج (في جامعتها) بألمانيا الشرقية في المدة بين ٦ و ١٢ من يوليو عام ١٩٨٠.

ويمثل هذا الفصل محاضرة ألقيناها عن هذا المؤتمر بدعوة من المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة يوم ١٩٨١/٥/١٦، وذلك ضمن الموسم العلمي الثقافي الذي نظمه المركز بمقره.

تمهيد:

في صيف عام ١٩٨٠، وعلى وجه التحديد بين السادس من شهر يوليو والثاني عشر منه، عقد المؤتمر الدولي الثاني والعشرون لعلم النفس بمدينة ليبزج وفي مقر جامعتها في ألمانيا الشرقية. ويعقد المؤتمر الدولي لعلم النفس كل أربعة أعوام في إحدى الدول التي تشترك جمعية علم النفس بها في الاتحاد الدولي لعلم النفس. وفي هذه الحالة فإنَّ الاتحاد الدولي لعلم النفس هو الذي ينظم المؤتمر ويعدُّ له بالاشتراك مع جمعية علم النفس بالدولة المضيفة للمؤتمر. ويعتبر المؤتمر الدولي لعلم النفس أكبر المؤتمرات الدولية التي تعقد لعلم النفس في العالم كله وأهمها، حيث يمثل بحق مهرجاناً عالمياً لعلم النفس، كما يغطي كافة فروع علم النفس واهتماماته.

ولقد كان لاختيار الاتحاد الدولي لعلم النفس مدينة ليبزج ومقر جامعتها بالذات مكاناً لعقد المؤتمر الثاني والعشرين مغزى عميقاً. ذلك أنَّ جامعة ليبزج بالذات لها مكانة خاصة في قلوب علماء النفس ومتخصصيه. ففي قسم الفلسفة بها أنشأ فونت (Wundt) أوَّل معمل لعلم النفس في العالم كله عام ١٨٧٩، حيث كان أستاذاً للفلسفة بهذه الجامعة. ومنذ ذلك الحين تتلمذ على يديه بمعمله كثير من علماء النفس في أنحاء كثيرة من العالم شرقه وغربه، وعندما عادوا إلى بلادهم تولوا نشر معامل علم النفس بجامعاتها. وإذا كان هذا هو المغزى العميق لاختيار مكان انعقاد المؤتمر، فإنَّ هناك

مغزى آخر للربط بين توقيت المؤتمر ومكانه، ذلك أنَّ مجيء عام ١٩٨٠ يعتبر اكتمالاً لقرن كامل على نشأة معمل علم النفس وفاتحة لقرن جديد. ومما يزيد الأمر أهمية أنَّ كثيرين من علماء النفس يعتبرون أنَّ تاريخ فتح معمل ليبزج هو تاريخ ميلاد علم النفس وتبلوره كعلم مستقل له كيانه الخاص بعد أن كان مجرد فرع من فروع الفلسفة أو موضوع من موضوعاتها، وذلك بعد أن اصطنع لنفسه منهجاً جديداً لدراساته هو المنهج التجريبي مخالفاً بذلك المنهج الفلسفي الذي يعتمد أساساً على التأملات النظرية ومن هنا فقد كان التجمع العالمي لعلماء النفس بليبزج في صيف عام ١٩٨٠ بمثابة تجديد لذكرى فونت ومعمله، وبمثابة احتفال بانقضاء قرن كامل على ميلاد علم النفس ومطلع قرن جديد.

ولعلَّ هذا ما جعل نسبة كبيرة من علماء النفس في العالم تحرص على المشاركة في هذا المؤتمر، فقد اشترك فيه حوالي ثلاثة آلاف ونصف الألف من الأعضاء من قرابة خمسين دولة من دول العالم المختلفة المواقع والاتجاهات والنظم. فكان من ألمانيا الشرقية وحدها حوالي ثلث الأعضاء (وذلك نظراً لسهولة الاشتراك في المؤتمر بالنسبة لهم وسهولة تدبير الإقامة)، ومن الولايات المتحدة الأمريكية حوالي ٢١٥، ومن اليابان حوالي ١٧٥، ومن الاتحاد السوفيتي حوالي ١٦٠، ومن تشيكوسلوفاكيا حوالي ١٣٠، ومن بولندا حوالي ١١٥، ومن المجر حوالي ١١٥، ومن كندا حوالي ٦٠، ومن بلجيكا حوالي ٣٠، ومن استراليا حوالي ٣٠، ومن إسبانيا حوالي ٣٠، ومن السويد حوالي ٣٠، ومن يوغسلافيا حوالي ٢٠، ومن الصين حوالي خمسة أعضاء. ونكتفي بذكر ذلك على سبيل المثال لا الحصر.

ولقد قدم في المؤتمر حوالي ألف بحث ودراسة، وكانت تعقد ندواته ومناقشاته ومحاضراته وأفلامه وفق برنامج زمني على مدى خمسة أيام (باستثناء جلسة الافتتاح وحفل استقباله) تبدأ من الساعة التاسعة صباحاً حتى السابعة إلاَّ الربع مساء كل يوم، باستثناء نصف ساعة يتوقف فيها نشاط

المؤتمر ما بين الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر إلى الثانية، وكانت تصل جلسات المؤتمر وحلقاته إلى قرابة العشرين في نفس الوقت صباحاً ومساءً، وينتقي العضو ما يهمه منها لحضوره.

وبالنسبة لنا، فقد كان حضور هذا المؤتمر في غاية الأهمية حيث صحح لنا الكثير من آرائنا وتصوراتنا عن قضايا هامة مثار خلاف وجدل بين المشتغلين بعلم النفس والمهتمين به في مصر والبلاد العربية، خاصة تلك الآراء والتصورات التي تبنتها وروّجت لها الثورة الروسية الاشتراكية في أوائل عهدها، ثمّ حذت حذوها، الثورات الاشتراكية الأخرى كالثورة الصينية على سبيل المثال. وسوف يكون هذا الموضوع هو محور هذا الفصل.

أولاً: موقف الكتلة الشرقية من فونت:

اتخذت الثورة الروسية الاشتراكية بعد قيامها موقفاً مناهضاً لمعظم التيارات والاتجاهات السائدة وقتذاك في علم النفس كالقياس النفسي وعلم النفس الصناعي والتحليل النفسي. كما تبنت الثورة الروسية على وجه خاص موقفاً عدائياً من فونت ومعمله وأدانتهما بشدة. ويبدو الأمر منطقياً هنا في أن تجمع الثورة الروسية في هجومها بين فونت وبين علم النفس، لما هو واضح من الدور الهام، والأثر الكبير لفونت في علم النفس كما سبق أن أشرنا.

وربما ترجع بدايات إدانة فونت والهجوم عليه في روسيا إلى لينين في كتابه «المادية ونقد التجربة Materialism and Empirio - Criticism» والذي ظهر في عام ١٩٠٩. حيث هاجم فونت ونقده بعنف متهماً إياه بالمثالية والترويج لها وتدعيمها (ارجع إلى الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب والصادرة عن دار التقدم بموسكو عام ١٩٦٧، حيث توجد بها صفحات كثيرة متفرقة تبدأ من صفحة ٤٨ إلى ما بعد منتصف الكتاب توضح رأي لينين في فونت).

لكن إذا كان هذا هو موقف الاتحاد السوفيتي من فونت ومعمله وسيكلوجيته في بداية ثورته الاشتراكية، فهل لا زلنا نجد لهذا الموقف

استمراراً حتى الآن أم أنَّ الروس قد عدلوا موقفهم؟.

لا شكَّ أنَّ موقف الروس والكتلة الشرقية عموماً (على اعتبار الروس طليعتها وقادتها) قد عدلوا من موقفهم إزاء فونت ومعمله، كما تدلل على ذلك اتجاهات علمائهم في هذا المؤتمر، وضخامة نسبة أعضائهم فيه، مما يبين عن مشاركتهم علماء العالم احتفاءهم بذكرى فونت ومعمله. بل إنَّ علماء من الكتلة الشرقية، شأنهم شأن غيرهم، قد أسهموا في ندوات وجلسات عقدت خصيصاً لتخليد ذكرى فونت في هذا المؤتمر.

١ ـ بحث هوفسب:

ونشر بهذا الصدد البحث الذي اشترك به هوفسب Hovsep الروسي (٤، ١٢) في إحدى الندوات التي عقدت تخليداً لذكرى فونت في هذا المؤتمر بعنوان: «فونت في التاريخ العالمي لعلم النفس». ففي هذا البحث يرى هوفسب أننا ينبغي أن نعتبر فونت بدون شك واحداً من أعظم علماء النفس أثراً في توجيه البحث نحو علم نفس جديد، ليس فقط في ألمانيا، بل في كثير من البلدان. كما أنَّه لعب دوراً تاريخياً تقدمياً خلال الخطوات الأولى من الصراع ضدَّ علم النفس الروحاني والجامد. كما يورد في بحثه نقلاً عن بورنج Boring وصفه لفونت بأنَّه أكبر سيكلوجي في تاريخ علم النفس، وأنَّه رجل يمكن بدون أي تحفظ أن نسميه سيكلوجيا بحق. فقبله كان يوجد علم نفس بكثرة، لكن لم يكن يوجد سيكلوجيون. وعندما نسميه منشىء علم النفس التجريبي. فنحن نعني بذلك أنَّه طور فكرة علم النفس كعلم مستقل وأنَّه أكبر علماء النفس معاً. وعندما يورد هوفسب هذه الأفكار عن بورنج دون تعليق فإنَّه بهذا يتبناها عن قناعة شخصية يشترك فيها مع بورنج. ولا شك أنَّ هذا البحث لهوفسب يدلل بشكل واضح على مدى التعديل في الموقف السوفيتي من فونت بحيث قلبه من موقف مدين ومناهض إلى موقف محبذ ومؤيد.

٢ ـ بحث شن ولي:

هذا، وفي نفس الندوة قدّم بحث آخر لعالمين صينيين هما شن ولي Shun and Li (٨، ٩) بعنوان «فونت وعلم النفس الصيني». وفي هذا البحث يشير شن ولي إلى أنّه باستثناء يون باي Yuan — Pai الذي ربما كان التلميذ الصيني الوحيد الذي حضر محاضرات فونت في ليبزج، فإنّ علم النفس الفونتي أتى إلى الصين عن طريق اليابان وأمريكا وأوروبا. وأنّه قد أثر في الصين كثيراً قبل الثورة. لكنه بعد الثورة الصينية تعرض فونت لنقد شديد من علماء النفس الصينيين تحت تأثير الثورة الاجتماعية والثوار الذين رأوا وجوب بحث علم النفس العلمي في ضوء المادية الجدلية. كما يضيفان أنّه بعد تحطيم عصابة الأربعة أعيد تقييم سيكولوجيا فونت فتبين أنّها تشتمل على قدر من المادية والعوامل الديالكتيكية. ويزيدان على ذلك أنّ فكرة فونت الأساسية والتي تؤكد بشدّة على النظر إلى علم النفس باعتباره علماً مستقلاً أصبحت واسعة القبول في الصين. وأنّ ذاك سوف يكون له أثر إيجابي على تطوير علم النفس الصيني بمثل ما أثر في علم النفس في العالم كله. ويوضح هذا مدى احتذاء الصين بالنموذج السوفيتي في موقفه من فونت الذي بدأ بالهجوم والإدانة وانتهى أخيراً إلى القبول والإشادة.

ومن الجدير بالذكر أنّ عالماً كندياً (خارج الكتلة الشرقية) هو فروست Frost (٣، ٣) قدّم في نفس الندوة بحثاً بعنوان «النظرية والمنهج وفيلهم فونت» أشار فيه إلى أن فكر فونت كان ديالكتيكياً بشكل واضح في طبيعته كما كان معارضاً بشدة للنظرة الترابطية الجامدة. وأنّه في نهاية حياته كان شديد النقد للقيم والحضارة البريطانية والأمريكية. كما أوضح فروست أنّ فونت نفسه يعتبر المنهج التجريبي محدوداً في صلاحيته وذلك منذ كتاباته الأولى، واعتبره غير مناسب على وجه الخصوص لبحث علم النفس الثقافي، إذ اعتبر أنّ أفضل صلاحية له هي مناهج الأنثروبولوجيا.

وإذا ما جاز لنا أن نتخذ من اهتمام كلية علم النفس بجامعة موسكو

بمعامل علم النفس دليلاً على تعديل موقف الروس من فونت وعلم النفس التجريبي، فإنَّ ما كتبه عالم النفس السوفيتي لوريا Luria عن تعليم علم النفس في جامعة موسكو يوضح ذلك بجلاء. وفي هذا الصدد يذكر لوريا أنَّ كلية علم النفس بجامعة موسكو بها العديد من معامل علم النفس المخصصة للبحث. ويورد لوريا خمسة معامل علم نفس متخصصة بالكلية هي (١١، ٦٥):

١ ـ معمل علم النفس العصبي.
٢ ـ معمل علم النفس الفسيولوجي.
٣ ـ معمل علم نفس العمل (أي علم النفس الصناعي).
٤ ـ معمل التعليم المبرمج.
٥ ـ معمل علم النفس الارتقائي.

ثانياً: الموقف من القياس النفسي:

كثيراً ما يهاجم القياس النفسي وتدان اختباراته، خاصة من ذوي الاتجاهات الأيديولوجية التقدمية، بحجة أنَّ القياس (الاختبارات النفسية) يعمل على تقسيم الناس إلى فئات أو طبقات، وأن الإيديولوجيات التقدمية تستهدف تذويب الفوارق بين الطبقات والفئات وإلغاء ما بين الناس من فروق بما فيها الفروق السيكلوجية. ويذهبون إلى ما هو أبعد من ذلك فيرون أنَّ الفروق بين الناس في الذكاء والقدرات العقلية المختلفة والاستعدادات والخصائص الشخصية، تختفي إذا ما اختفت الفروق الطبقية أو الفئوية المادية بين الناس، وأنَّ الفروق السيكلوجية ما هي إلا انعكاس مباشر للفروق الطبقية. ويتوهمون بذلك أنَّ الوضع الطبقي أو الفئوي الواحد سوف يؤدي إلى خصائص سيكلوجية واحدة تسود الأفراد فتختفي الفروق بين الأفراد في الجوانب السيكولوجية المختلفة، بحيث يصبحون جميعاً في مستوى ذكاء واحد ومستوى ذاكرة واحدة، ومستوى تحصيلي دراسي واحد، ومستوى فني واحد، ومستوى صحة نفسية واحدة... ولقد بلغ الأمر بأصحاب هذا الرأي إلى

إنكار وإدانة نتائج علمية واكتشافات أدّت إليها البحوث الميدانية الواقعية، بل والملاحظات والمشاهدات العادية، مثل التوزيع الاعتدالي لكثير من الاستعدادات والخصائص السيكلوجية للأفراد، والذي يوضح أنّ قلّة من الأفراد تمتلك هذه الخصائص بدرجات عالية تقابلها قلّة مماثلة تقريباً في نسبتها تمتلكها بدرجات مرتفعة، بينما تمتلك الغالبية هذه الخصائص بدرجات متوسطة، ومثل أيضاً ما يعرف بالتباين داخل الفرد الواحد في الاستعدادات النفسية والقدرات العقلية، بمعنى أنّ الفرد نادراً ما يكون في مستوى واحد بالنسبة للاستعدادات النفسية والقدرات العقلية، بل غالباً ما يكون مرتفعاً في بعضها ومنخفضاً في غيرها بالنسبة لنفسه، فنجده مثلاً مرتفعاً في الذكاء منخفضاً في الذاكرة متوسطاً في القدرة الفنية بالقياس إلى نفسه هو.

وترجع أصول هذا الموقف المدين للقياس السيكلوجي إلى إدانة الاتحاد السوفيتي له بعد ثورته الاشتراكية. وكان ذلك موقفاً مماثلاً. أو فلنقل مقابلاً أو مكملاً لموقفه من فونت ومن سيكلوجيته. وقد كان هذا من وجهة نظرنا موقفاً ميتافيزيقياً ممعناً في الغرابة ومجافياً للحقيقة التي ينبغي على العلم أن يسعى دائماً لاكتشافها وتعليلها، وليس لإنكارها ومجافاتها.

ولما كان القياس النفسي مرتبطاً إلى حد كبير بالإحصاء، فقد لحقت المبادىء الإحصائية ومعاملات الإحصاء واستخدامه في البحوث النفسية بعض الإدانة كتعميم للموقف من القياس الذي تبناه ذوو الاتجاهات التقدمية.

لكننا لاحظنا من البحوث التي قدمت في المؤتمر من جانب علماء النفس السوفيتيين وعلماء نفس الكتلة الشرقية عموماً تعديلاً واضحاً في موقفهم من القياس النفسي والاختبارات النفسية والاستخدامات الإحصائية في البحوث النفسية ونكتفي هنا بذكر نموذجين للتدليل على ذلك:

١ ـ بحث بنج:

فها هو بنج Pung (٦، ٥٨١) من جامعة ولاية تارتو بالاتحاد السوفيتي يقدم بحثاً عن آثار العمل والنشاط الزائد عن الحد المناسب لطاقة الإنسان. وفي هذا البحث درس ٢٥ نوعاً مختلفاً من الوظائف الذهنية والحركية والحسية، واستخدم في ذلك مقاييس لقياس: النبض، وضغط الدم، والاهتزاز، واتساع الرئة، وسرعة الحركات البسيطة ودقتها، ومعدل النقر، وزمن الرجع، وإدراك المسافات الزمنية، والقدرة على الانتباه، والذاكرة القريبة، والقدرة المكانية، وأداء واجبات ذهنية مختلفة، والقدرة على تصحيح أخطاء. وقد عولجت البيانات كلها بمعاملات إحصائية خاصة بتحليل التباين وبالارتباطات وبالتحليل العاملي.

ولقد تبين من هذا البحث التجريبي أنَّ كمية النشاط الواجب على الفرد ممارستها سواء ذهنياً أو عضلياً أو حسياً ينبغي أن تكون معتدلة في حجمها ومناسبة له حتى يصل الفرد لأقصى كفاية له. ففي حالة عبء النشاط المناسب تكون الوظائف النفسية كالإحساس والإدراك والتذكر والانتباه في أقصى اتزان لها وتآزر بينها.

ونلاحظ في هذا البحث تعديلاً واضحاً في موقف السوفييت من القياس والاختبارات النفسية، حيث يلجأ الباحث إلى الاستعانة بالقياس في دراسته، كما نلاحظ أيضاً اعترافاً بأهمية الإحصاء ومعاملاته، فيلجأ الباحث إلى التحليلات الإحصائية المعروفة عالمياً كتحليل التباين والتحليل العاملي وتحليل الارتباطات. وعلاوة على ذلك فإنَّ الباحث الروسي هنا يستخدم التجريب على نفس النحو والطريقة التي استخدمها فونت في معمله بليبزج، بل وفي موضوعات قياس تكاد تتطابق وموضوعات قياس فونت، وفي دراسة ظواهر تذكرنا بما درج فونت وتلاميذه على دراستها في ليبزج.

٢ ـ بحث ستانكاك وزميليه:

ومن تشيكوسلوفاكيا قدم لنا ستانكاك وفرانك وجازوفا Stancak

Fraenke and Jasova (٩، ٥٤١) في هذا المؤتمر بحثاً بعنوان: «أنماط ذوي الميول الانتحارية وفقاً لطريقة الـ MMPI». والـ MMPI كما نعلم مقياس أمريكي الأصل لقياس جوانب السواء والمرض في الشخصية، مبنى على أسلوب التقرير الذاتي والاستبيانات في قياس سمات الشخصية (وهو بذلك وسيلة من وسائل جمع البيانات في الدراسات السيكلوجية، وليس طريقة أو منهجاً في البحث كما يوحي عنوان هذا البحث). وكان الهدف من البحث هو التعرف على نمط بروفيل الشخصية التي تميل للانتحار كما يوضحه مقياس الـ MMPI فطبق الباحثون مقياس الـ MMPI على مجموعتين إحداهما تميل للانتحار، أو لديها استعداد كبير للإقدام على الانتحار، والمجموعة الثانية لا تميل للانتحار. وكانت كل مجموعة مكونة من مائة فرد نصفهم من الذكور والنصف الآخر من الإناث. كما راعى الباحثون أيضاً أن تكون المجموعتان متعادلتين في مستوى الذكاء حسب نسب الذكاء التي تستخرج من تطبيق مقياس وكسلر ـ بلفيو للذكاء، وهو مقياس أمريكي الأصل أيضاً. ولقد عالج الباحثون نتائج بحثهم باستخدام التحليل العاملي والارتباطات. ولقد تبين من البحث نمطان متمايزان في الصفحة النفسية للذكور الميالين للانتحار أحدهما ارتفع فيه مقياس الانقباض بينما الثاني ارتفع فيه مقياس الانحراف السيكوباتي. أمّا بالنسبة للإناث فقد وجد أيضاً نمطان متمايزان بالصفحة النفسية لذوات الميول الانتحارية، بحيث ساد أحد النمطين ارتفاع في مقياس الانحراف السيكوباتي، بينما ساد النمط الثاني ارتفاع في مقياس البرانويا.

ولهذا البحث الذي قام به التشيكيون الثلاثة وقدموه للمؤتمر أهمية كبيرة للموضوع الذي نناقشه الآن. فتشيكوسلوفاكيا دولة من أهم أقطاب الكتلة الشرقية، هذا إلى جانب أنَّ البحث كان لأكثر من باحث مما يدل على مدى قبول وانتشار الاتجاهات الواردة بين علماء النفس في تشيكوسلوفاكيا. هذا علاوة على استخدامه لمقياسين نفسيين لهما شهرة واسعة لدى المشتغلين بعلم النفس (وبالمناسبة فهما مترجمان إلى العربية في مصر

ويستخدمان بها بكثرة الآن ومنذ الخمسينات)، وهما مقياس الـ MMPI (مقياس مينيسوتا المتعدد الأوجه للشخصية) ومقياس وكسلر- بلفيو لذكاء الراشدين والمراهقين. هذا علاوة على استخدام الإحصاء وتحليلاتها، واستخدام فكرة المجموعة التجريبية (مجموعة الميالين للانتحار) والمجموعة الضابطة (مجموعة غير الميالين للانتحار) والتي تتعادل معها من حيث الخصائص الهامة، باستثناء العامل المدروس وهو الميل للانتحار. ومن الملاحظ أنَّ استخدام المجموعتين هنا، كما هو للإحصاء، كما هو للقياس النفسي، قد تمَّ في هذا البحث بنفس الكيفية التي يتم بها في البحوث التي تتم في البلاد الغربية.

فإذا أضفنا إلى هذا وذاك أن جانباً من النقد الذي يوجه إلى القياس النفسي ينصب على استحالة نقل أو ترجمة أو تقنين مقياس نفسي أعد أصلاً لبيئة معينة بحيث يعاد إعداده واستخدامه في بيئة أخرى، لأدركنا مدى أهمية دلالة هذا البحث على دحض هذه الفكرة الفجة، والتي لا زال البعض يرددها حتى الآن. فها هم ثلاثة من العلماء التشيكيين يقدمون دراسة سيكلوجية باستخدام مقياسين من أصل أمريكي إلى أكبر مؤتمر عالمي لعلم النفس. ويدل هذا بشكل واضح على تغير هام في موقف الكتلة الشرقية من القياس النفسي بحيث قلبه من الإدانة والاستنكار والرفض إلى القبول والترحاب. مما يذكرنا بالتغير المقابل من فونت ومعمله والذي ناقشناه في البند السابق.

ثالثاً: العلم والأيديولوجيا:

العلاقة بين العلم والأيديولوجيا علاقة شديدة التعقيد، ومثار كثير من الجدل بين العلماء. ويرجع ذلك أساساً إلى أنَّ الأيديولوجيين يريدون استغلال العلم وتوجيه نتائجه وتطبيقاته نحو خدمة أهداف محددة. وهم في غمرة حماسهم لتحقيق ذلك يخلطون بين العلم ونتائجه من جانب، وبين استغلالهما وتطبيقهما من جانب آخر، وهو خلط في رأينا غير مشروع ويؤدي إلى الكثير من البلبلة. بل يؤدي أيضاً إلى إدانة العلم ورفض نتائجه في كثير

من الأحيان. وفي رأينا أنَّ العلم ونتائجه (طالما كانت مستمدة من منهج علمي) فإنَّه لا غبار عليهما، وينبغي أن يكونا مقبولين على طول الخط. بل ينبغي على العلماء بصرف النظر عن اتجاهاتهم الأيديولوجية الخاصة أن يسعوا دون تحيز إلى دراسة الظواهر سواء طبيعية أو إنسانية بهدف اكتشاف قوانينها وتفسيرها والإحاطة بأكبر قدر من المعلومات عنها. أمَّا مسألة استغلال النتائج العلمية وتطبيقاتها فهي أمر يخضع بالفعل لأهداف مستغليه ومطبقيه، وهو استغلال وتطبيق يمكن بالفعل أن نباركه أو أن ندينه، وذلك بناء على ما يحققه من أهداف بناءة للمجتمع القومي أو الدولي، أو أهداف مدمرة لواحد منهما أو كليهما. ولنأخذ مثلاً على ذلك الطائرة كإنجاز علمي بني على تراث من التقدم العلمي الذي حققته البشرية حتى الآن. فاختراع الطائرة وتمكين الإنسان بواسطة الإنجازات العلمية من الطيران في الجو أمر طيب محبذ في حد ذاته، يكسب الإنسان قدرة أكبر على مجابهة الطبيعة والانتصار عليها وتحقيق رغباته في يسر وسرعة. فهو يستطيع أن يكون في نصف الكرة الشمالية ينجز عملاً بالصباح وفي نصفها الجنوبي ينجز عملاً بالمساء تقطع بينهما بضعة آلاف من الأميال وذلك دون إرهاق كبير. إلاَّ أنَّ الإنسان يمكن أن يستغل الطائرة نفسها في غزو بلد مسالم وقتل أهله ظلماً وتدمير دياره ومنشآته والاعتداء عليه واحتلاله، كما أنَّه بالمثل يمكن أن يستغل الطائرة في عملية إبادة الحشرات التي تقضي على الإنسان أو المحاصيل الزراعية... إذن يمكن استغلال العلم لصالح المجتمع في نشر الخير وتدعيم التقدم والبناء، كما يمكن أيضاً استغلاله في فرض الظلم ونشر الشرور والدمار، كما يمكن ـ ثالثاً ـ استغلاله في رد الظلم والدفاع عن النفس والمجتمع ضد ما يتهددهما. ومن هنا كان رأينا في أنَّ العلم في حد ذاته لا غبار عليه ولا نوافق أية أيديولوجية في موقفها عندما تدينه. وإنما نوافق فقط على إدانة استغلاله الاستغلال الشرير الظالم والمدمر.

ولعلَّ هذا، ما أدركته الأيديولوجية الاشتراكية أخيراً، فبدأت تفصل بين

الأيديولوجية والعلم وتتخلى بشكل واضح عن مواقف الإدانة الشديدة التي كانت تواجه بها فونت والقياس النفسي وعلم النفس عامة، وتقر الواقع الموضوعي المؤيد للعلم والمتقبل له، على نحو ما عرضنا في البندين السابقين.

وهناك اعتقاد شائع حتى الآن وهو أنَّ المجتمعات التي تقوم على عقائد أيديولوجية لا تهتم إلَّا بالظواهر والموضوعات ذات الدلالة لأيديولوجيتها، ولا تضفي الشرعية العلمية إلَّا على النتائج التي تتفق مع أيديولوجيتها وتؤيدها. وإن صدق هذا بالنسبة لبعض المجتمعات المختلفة، فإنَّه لا يعود بصدق الآن على المجتمعات الأيديولوجية المتقدمة كمجتمعات الكتلة الشرقية عموماً.

فمن الطريف حقاً أن نجد علماء النفس من الكتلة الشرقية قد اشتركوا تقريباً في كل الموضوعات التي دار حولها نشاط المؤتمر. وكانت بحوثهم لا تختلف من حيث مرضوعاتها أو مناهجها أو أدواتها أو نتائجها عن تلك التي قدمها علماء النفس بالكتلة الغربية. حتى أنَّ مجرد قراءة البحث دون معرفة صاحبه لا تمكن القارىء من التخمين الصحيح لما إذا كان صاحبه من الكتلة الشرقية أو الغربية. ونكتفي هنا بإيراد أربعة نماذج لتأييد رأينا هذا:

١ ـ بحث تاتيزاروف وموير ويان:

فها هو تاتيزاروف وزميله مويرويان Taytsarov and Moiroyan (١٠، ٥٠٨) الروسيان يقدمان بحثاً بعنوان «تعديل مفهوم الذات في مرضى الكحول خلال العلاج الجمعي». وفي هذا البحث درس الباحثان تعديل مفهوم الذات في ٣٤ مدمناً كحولياً تعاطوا أربع جلسات علاج نفسي جمعي. وقد طبقا على هذه العينة مقياساً نفسياً لمفهوم الذات هو مقياس (Tscs). وذلك قبل جلسات العلاج وبعدها. فتبين لهما أنَّ العلاج النفسي الجمعي له تـأثير إيجابيّ على تعديل مفهوم الذات. وقد علَّلا هذا التأثير بأنَّه ناجم عن التفاعل بين المرضى وتأثر المريض واستفادته من خبرات زملائه والتوحدات المختلفة

بهم. وكل هذا يعمل على تقوية دور الضبط الواعي لسلوك المريض. ولا شك أنَّ هذا البحث الروسي يمكن أن يكون بموضوعه ومنهجه وأدواته بحثاً أمريكياً أو فرنسياً أو بريطانياً أو مصرياً.

٢ ـ بحث ماريك:

كما قدم ماريك Marek (٥، ٥٣٩) العالم البولندي بحثاً عن الانغلاق على الذات (Autism) كميكانيزم دفاعي في الشخصية. وكانت عينة البحث عبارة عن ١٢٠ حالة فصامية خضعت للملاحظة والدراسة الإكلينكية على مدى عشر سنوات. وانتهى الباحث إلى أنَّ تحليل بياناته تبين أنَّ الفصامي يستخدم الانغلاق على الذات كدفاع ضدَّ مثيرات قوية تأتيه من العالم الخارجي تفوق القدرة البسيطة له على التحمل. ويوصي الباحث بناء على ذلك بتقبل المريض وتقديم مشاعر متعاطفة معه حتى نقلل من مخاوفه ونقوي من قدرته على التحمل. وواضح أنَّ هذا البحث مثل سابقه يمكن أن يكون بموضوعه ومنهجه وأدواته ونتائجه وتوصياته بحثاً مصرياً أو فرنسياً أو أمريكياً بمثل ما هو بحث لعالم من الكتلة الشرقية.

٣ ـ بحث شميت:

أمَّا البحث الثالث والذي نريد أن نقدمه كنموذج للتدليل على رأينا فهو بحث شميت Schmidt (٧، ٥٤١) من المجر. وقد قدم بحثه تحت عنوان «طريقة الحياة البناءة على أساس من بحث الصراع». وفي مدخله لبحثه يشير الباحث إلى أنَّ الإحصائيات العالمية التي ظهرت من بضع سنين تبين أنَّ المجر أعلى مجتمع في معدل الانتحار والثاني في معدل الطلاق. وأنَّ هذا هو السبب الذي جعل علماء المجر يهتمون ببحث الصراع. ويضيف الباحث أننا نوضع في مواقف صراعية كثيرة أثناء حياتنا اليومية مما يتسبب عنه توتر. ويعتبر هذا التوتر بمثابة طاقة كامنة تقوم اتجاهاتنا بتحديد ما إذا كنَّا نستخدمها في تحقيق تنمية للشخصية أو في أشكال تدميرية لها. وفي رأي الباحث أنَّه

يمكن ترشيد هذه الاتجاهات وغرس الاتجاهات البناءة في الحياة بين الأفراد. أمّا طريقة الباحث في دراسته فكانت عبارة عن سؤاله لـ ٧٠٠ طالب أن يقدم كل منهم ذكرياته عن المواقف الصراعية التي مرَّ بها في حياته، كما طبق على ٣٥٠ طالباً اختباراً للتشخيص النفسي. ومن البيانات التي تجمعت لديه قام الباحث بتحليل المضامين الصراعية وتصنيفها إلى ثلاثة أنواع: صراعات «أنا ـ هم» وصراعات «أنا ـ أنت»، وصراعات شخصية ذاتية داخلية «أنا ـ أنا». ويرى الباحث أنَّه بعد أن يتم تحديد مواقف الصراع المختلفة والنمطية يمكن بناء على ذلك القيام بترشيد الاتجاهات لتصبح مناسبة لمواجهة الصراع مواجهة بناءة، كما يمكن تعليم هذه الاتجاهات وغرسها بشكل مقصود ومنظم منذ مرحلة المدرسة الإبتدائية. وبذلك يمكن تحقيق تكامل الذات وتنظيم الصراع والوصول إلى الطريقة البناءة في الحياة. ويرى الباحث إمكانية تحقيق كل هذا بواسطة التدريس الخاص أو التدريب أو المحاضرة أو الإشراف والمتابعة من جانب الأساتذة والمربين. ونلاحظ أنَّ هذا البحث ـ كسابقيه ـ يمكن أن يكون بموضوعه ومنهجه وأدواته ونتائجه وتوصياته بحثاً مصرياً أو فرنسياً أو بريطانياً أو أمريكياً بمثل ما هو بحث لعالم من علماء الكتلة الشرقية، وإن كان قد فاجأنا في مقدمته باحتلال المجر المكانة الأولى في معدل الانتحار والثانية في معدل الطلاق في الإحصائيات العالمية، وهو أمر كنا نستبعده من قبل تماماً بالنسبة لمجتمعات الكتلة الشرقية عامة والمجر خاصة.

٤ ـ بحث آسييف:

أما البحث الرابع والأخير من الأبحاث التي نريد أن نشير إليها تدعيماً لرأينا فهو بحث آسييف Aseyev (٢، ٥٥٧) العالم الروسي. فقد قدم بحثاً في هذا المؤتمر بعنوان «عن العوامل النفسية الاجتماعية التي تستثير نشاط الأفراد في العمل». وفي هذا البحث يرى آسييف أنَّه تقع على إدارة العمل من الناحية النفسية الاجتماعية مسؤولية خلق الظروف التي تحفز العامل

وتقوي دافعه للعمل. وأنّه عادة ما نعمل على رفع الدافع للعمل باستخدام حوافز مختلفة مادية ومعنوية، إلاّ أنّها في حقيقة الأمر لا تلعب الدور الحاسم، إذ أن الحوافز المادية والمعنوية لا تتحول إلى دوافع حقيقية إلاّ في حالة ارتباطها باتجاه واعٍ للفرد نحو عمله، وبإدراكه للمعنى الاجتماعي للعمل الذي يؤديه ولمسؤوليته الشخصية عنه وعن إنتاجيته. ويقترح البحث ثلاثة «مبادىء» لرفع الدافع السيكلوجي للعامل نحو عمله: أولها هو استخدام الأساليب السيكلوجية الخاصة والتي تستثير الدافع نحو العمل المنتج برفع مستوى وعي العامل بأهمية عمله، وثانيها هو خلق ظروف مهيئة ومشجعة لتعبير العامل عن ذاته وإبراز إمكانياته الكامنة على العمل والإنتاج، مما يتيح للعامل إشباع دافع سيكلوجي هام عنده هو دافع تأكيد ذاته مهنياً. أمّا ثالثها فهو إعطاء الأفراد فرصة متكافئة لضبط عملهم ولزيادة نشاطهم المهني بدرجة أكبر من الحرية، مع الأخذ في الاعتبار الخصائص المتفردة لكل عامل وإعطائه الفرصة لضبط كمية عمله وتنظيمه خلال نوبة العمل أو خلال فترات محددة. ومن الواضح أنّ موضوع هذا البحث ونتائجه وتوصياته يمكن أن تكون مصرية أو فرنسية أو أمريكية، وليست روسية فقط، كما أنّها تذكرنا بدراسة التون مايو Mayo وزملائه في أمريكا على مصنع الهاوثورن عن أهمية الدوافع النفسية الاجتماعية في العمل، وتلتقي مع نتائجها.

ولعلّه قد بدا الآن واضحاً ـ من النماذج الأربعة التي اكتفينا بذكرها ـ أنّ علم النفس في البلاد الأيديولوجية المتقدمة قد انفصل عن الأيديولوجيا واستقل عنها أخيراً، تماماً كما سبق وانفصل بفضل فونت عن الفلسفة منذ قرن من الزمان. وبذلك يكون علم النفس قد صحح مساره، أو بمعنى أدق تكون المجتمعات الأيديولوجية المتقدمة قد تجاوزت موقفها القديم من علم النفس ودعمت موضوعيته العلمية.

رابعاً ـ دولية علم النفس وقومية علمائه:

«دولية العلم وقومية العلماء» عنوان مقال ترجمه الدكتور محمد عبد

الفتاح القصاص عن نرومان ستورر (١، ٦ ـ ٢٥). ونحن نستعيره هنا إذ نعتقد أنَّ هذه العبارة بالغة الدقة في انطباقها على علم النفس على نحو ما برز في مؤتمره الدولي بليبزج. فلقد صنف كل عالم اشترك في هذا المؤتمر حسب الدولة التي يحمل جنسيتها، لكن عند تصنيف البحوث التي قدمت للمؤتمر تمَّ تصنيفها حسب موضوعاتها واهتماماتها دون أدنى اعتبار لقومية العلماء. وهذا ما كان متوقعاً بطبيعة الحال، حتى إننا ما كدنا نجد موضوعاً معيناً أو اهتماماً معيناً انفرد به فقط علماء دولة واحدة أو حتى كتلة واحدة. فكنا نجد على اتساع الاهتمامات وتعدد الموضوعات التي شملها النشاط العالمي للمؤتمر علماء من دول تمثل الكتلة الشرقية ومن دول تمثل الكتلة الغربية ومن دول تمثل العالم الثالث، جنباً إلى جنب يلقون بحوثاً ويتناقشون حول موضوعات تشد اهتمامهم جميعاً، ويتطلعون إلى تعميق فهمهم لها ومعرفتهم بها والاستزادة من الجديد عنها في العلم. لقد استطاعت «دولية علم النفس» أن تتخطى «قومية العلماء» فإذا هم يتكلمون لغة مشتركة هي لغة علم النفس، ويهتمون اهتماماً مشتركاً هو معرفة المزيد عن الظواهر النفسية. ويكونون جماعة دولية واحدة هي جماعة مؤتمر علم النفس.

فإذا أضَفنا إلى كل ذلك وحدة منهج البحث في علم النفس بين دول العالم شرقه وغربه، شماله وجنوبه، متخطية بذلك الخلافات الأيديولوجية والقومية، أدركنا مدى اتصاف علم النفس بالدولية والعالمية، مما يدل على مستوى عالٍ من النضج والاستقلال عن القوميات الضيقة قد وصل إليه أخيراً هذا العلم. فها هم العلماء السوفييت شأنهم شأن العلماء الأمريكيين وغيرهم يستخدمون الملاحظة والتجريب والضبط المنهجي والقياس النفسي والتحليل الإحصائي بكيفيات متشابهة في دراسة ظواهر نفسية وموضوعات مشتركة، بحيث يصلون إلى نتائج يقبلونها ويعرضونها دون حساسيات قومية أو أيديولوجية تقاوم العلم، وتبعده عن موضوعيته.

خاتمة:

عرضنا في هذا المقال وناقشنا بعض الأفكار والقضايا الخاصة بعلم النفس والتي نرى ضرورة تصحيحها وتعديلها، خاصة وأنَّ بعض المناقشات والكتابات لا زالت تتخذ منها نفس الموقف القديم الذي تجاوزه أصحابه أنفسهم، كما اتضح لنا من أعمال المؤتمر الدولي الثاني والعشرين لعلم النفس بليبزج والإسهامات التي قدمت فيه. وركزنا بصفة خاصة على الموقف من فونت ومعمله، والموقف من القياس النفسي، وعلاقة العلم بالأيديولوجية، ودولية علم النفس وقومية علمائه. ولقد عرضنا نماذج لبحوث قدِّمت للمؤتمر تقيم الدليل على ما نقول، وتثبت أنَّ علم النفس وصل من النضج إلى مرحلة جعلته يتجاوز القوميات الضيقة إلى عالمية رحبة تحقق له موضوعيته المنشودة وكيانه المستقل، مع حريته في خدمة قضايا قومية وأخرى دولية، دونما هدف غير خدمة الحقيقة، وتحري الموضوعية، وتحقيق الرفاهية البشرية.

المـــراجع

١ ـ ستورر، نورمان: دولية العلم وقومية العلماء، ترجمة الدكتور محمد عبد الفتاح القصاص، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، العدد الثاني، السنة الأولى، يناير ١٩٧١.

٢ ـ **Aseyev, V. G;** On Socio - Psychological Factors Stimulating Individuals, Labour Activity, In, XXIInd International Congress Of Psychology, Leipzig, C D R, July 6 - 12, 1980, Abstract Guide, 557.

٣ ـ **Frost, B; Theory,** Method and Wilhelm Wundt, The Previous Reference, P. 3.

٤ ـ **Hovsep, T; W.** Wundt In World Psychological Historio - Graphy, The Previous Reference, P. 12.

٥ ـ **Marek, J;** Autism As A Syntono - Autistic Proportion and As A Defence Mechanism Of Personality, The Previous Reference, P. 539.

٦ ـ **Pung E;** About Defence Mechanisms Under Mental Overload, The Previous Reference P. 581.

٧ ـ **Schmidt, I;** On The Constructive Way Of Living On The Basis Of Conflict Research, The Previous Reference. P. 541.

٨ ـ **Shun, P. and Li, C;** Wihelm Wundt And The Chinese Psychology, The Previous Reference, P. 9.

٩ ـ **Stancak, A. and Others;** Suicidal Types According To The method MMPI, The Previous Reference, P. 541.

١٠ ـ **Taytsarov, S. and Moiroyan, A;** Modification Of Self - Concept In

Alcoholic Patients During Group Psychotherapy, The Previous Reference, P. 508.

١١ - Luria, A; L'enseignement de La Psychologie a L'université de Moscou, Bulleten de Psyochologie No 294. Tome XXV. U. N. E. S. C. O; Paris, 1971 - 1972 - 1.